تاريخ العلاقات المسيحية ــ الإسلامية في ثلاثة كتب رئيسية رائدة في هذا الموضوع. كما كانت هذه الخماسية قد تضمّنت مجلّداً مخصصاً للقضية الفلسطينية، حيث أشار الأب مبارك بكل وضوح إلى البُعد الإسلامي والبُعد المسيحي في هذه القضية نظراً إلى وجود الأماكن المقدّسة لهاتيْن الديانتيْن التوحيديتيْن في فلسطين المحتلة. ونأسف بطبيعة الحال لقلة الاهتمام، سواء في الكنيسة المارونية أو في لبنان بالأعمال الموسوعية للأب مبارك التي بقيَت محصورة التداول، رغم ما تحتوي عليه من فتح الطريق أمام تجدّد الفكر اللبناني والعروبي الحضاري في الوقت نفسه. وأودّ هنا أن أشكر الدكتورة سلام دياب، المقيمة في مدينة ليون في فرنسا، التي تطوّعت لترجمة هذه النصوص، رغم انشغالاتها الأكاديمية العديدة في المدينة حيث أصبحت اختصاصية في تعليم اللغة العربية.

جورج قرم

عقد

ما تخالف التقاليد المارونية، الشديدة التأييد للحكم الذاتي والتي لا يقل جهدها في نصر الشعب اللبناني وشعوب الشرق، المشروع الصهيوني في شكله المتفاقم منذ إعلان دولة إسرائيل. في الوقت نفسه، يلتقي هذا المشروع مع أخيار رجال الدين والمثقفين والمناضلين اليهود الذين كانوا حتى عام 1948 وبعده إلى جانب مارتين بوبر (Martin Buber) ومؤسس الجامعة العبرية جوده ماني (Judah Magnes) يريدون معايشة فعالة بفائدة متبادلة بين اليهود والمسيحيين والمسلمين في فلسطين على غرار التعايش المسلم المسيحي في لبنان.

لهذا، ليس هناك أي تناقض بل استمرارية منطقية وترويج حار لنفس المشروع عندما يدافع بعض الموارنة عن السلام بإنصاف الفلسطينيين في وطنهم. لا بل إنّ من أخذ على عاتقه هذا الملف هم مشاهير الموارنة، ابتداءً من نجيب عازوري الذي كان أول من وضع القضية الفلسطينية في قلب «نهضة الأمة العربية»، وانتهاءً بسليمان فرنجية، الرئيس العربي الوحيد الذي حمل القضية الفلسطينية إلى منصة الأمم المتحدة.

3. قد نرى أنّ مشروع الموارنة السياسي وهدفهم المسكوني فشلا جزئياً نظراً إلى أنّ وحدة إنطاكيا المسيحية كنواة لوحدة الكنيسة العالمية لا تزال في مستوى الأمنية فحسب. بل لقد أصبح مشروع الدول ـ الأمم المتعددة الديموقراطية والمتعايشة في حضن الوحدة العربية موضوع سخرية وعبث في لبنان وفلسطين ومن «الخليج إلى المحيط».

لكنّ الحال تختلف بالنسبة إلى المشروع الثقافي، الوجه الثالث والرئيسي للمسعى الماروني بين الشرق وأوروبا. وإني أعتقد أنّ الموارنة قد نجحوا تماماً في هذا الغرض، على الأقل لغاية الحوادث الطارئة الأخيرة والخطيرة إن صحت العبارة. ويمكننا القول بطريقة أو بأخرى إنّ الشرق برمته أصبح، من الناحية الثقافية، مارونياً إذ إنه تبنى الموقف الفكري والحي الذي كان الموارنة أول من اتخذوه بين الشرق وأوروبا.

نحتفل هذه السنة بالذات بالذكرى المئوية الرابعة لتأسيس المعهد الماروني في روما الذي أنشأه غريغوار الثالث عشر. ولقد تتبعتُ مهنياً إعداد أطروحة كرسها الأب ناصر الجميِّل لهذا الموضوع. هذه المجموعة، التي لم يكتفِ غرضها بموضوع واحد، حتى وإن كان جوهرياً، بل يشمل المسار الماروني برمته، تنوي نهج طريق الأب ناصر الذي توسع بحثه ليتناول تأسيس معهد عين ورقة عام 1789، النظير المطابق في لبنان لما كان عليه المعهد الماروني في روما.

اتّهمنا في هذا المجال كذلك بخدمة مشروع بطابع استعماري يزداد خطورة في المجال الثقافي عنه في المجال السياسي، نظراً إلى أنّه أرسى نهائياً ارتباطنا الاقتصادي بالغرب الصناعي.

أقرّ أنّه، في هذا المجال بالتحديد، هناك من الموارنة والأرثوذكس من يتجاهر بحماسة زائدة بالمارونية السياسية ويقع في الفخ إما بالمناداة بالازدواجية اللغوية والوطنية والقانونية، وإما بدعم «لغة لبنانية». لكن الجدال حول اللغات لا يرتقي إلى المركز الثالث في مشروع الموارنة الثقافي الذي أجده مثالياً بالنسبة إلى الشرق لأنّ الشرق صادق عليه فعلاً.

أولاً، من الضروري إعتماد وسائل البحث العلمية والتقنية التي أُعدت في أوروبا الغربية منذ بدايات عصر النهضة. في هذا الإطار، تمثل المطبعة الأداة التقنية المثلى لنشر المعطيات التي قام البحث العلمي بجردها.

ثانياً، يجتهد البحث بجرد إرث الإنسانية التاريخي والفلسفي والعلمي والفني. ويمثل الرجوع إلى العصور القديمة مظهراً من مظاهر هذه العملية الجرد. لكنه أساسي ولا سيما أنه يحمي كلّ اعتراف بالهوية ضد الخيارات الاعتباطية التي تتخذ في لحظة معينة وأنّه يربط كل اعتراف وطني على النحو ذاته بمجمل التراث.

لم نناقش حتى الآن موضوع اللغات وإنما الفلسفة الإنسانية. وهي هذه الفلسفة الإنسانية التي نشأت في أوروبا في عصر النهضة، أي قبل بكثير من إنسانية عصر الأنوار، التي تبناها الموارنة وعملوا لها وأصبحت المصلحة المشتركة للشرق العربي بأسره.

لكن بمَ تختلف فلسفة الموارنة الإنسانية عن إنسانية الفئة المثقفة أو حتى عامة العرب، وأين تكمن أهمية اللغات في هذا المجال؟

يبدو لي أنّ الاختلاف يكمن في نقطتين:

أ. عندما ننظر عموماً لا إلى الموقف الإنساني، وإنما إلى فحوى التراث المادي، نستنتج أنّ الموارنة قد تعربوا على الأقل منذ القرن الحادي عشر. إنّ أوّل مؤلف خالد في مجال الروحانيات والقانون الماروني، والذي يمكن القارئ أن يتعرف عليه في الكراسة الثالثة من الجزء الأول، لم يعد يعرف إلا باللغة العربية ويحمل عنوان: كتاب الهدى. من ناحية أخرى، أصبح هذا التعريب شبه كلي منذ القرن الثامن عشر. انطلاقاً من هذا التاريخ بالفعل، سبق الموارنة في حلب بمئة سنة النهضة السورية اللبنانية التي ستجد في مصر أرضية خصبة تسهل انتشارها. لكن تعريب الموارنة من أول الألفية الثانية إلى آخرها لم يتغلب على السريانية لا في الطقوس ولا كخلفية أو منبع عميق للثقافة.

لكن التقاليد المارونية لا تبحث لنفسها عن منفعة ذاتية، مهما بدت شرعية، بل تقدم التماساً لا بد أن يتأثر به كل عربي حريص على كمالية ثقافته ودورها العالمي. إذ لا يمكن عروبة جديرة بهذا الاسم أن تبقى بمنأى عن السريانية كلغة أخت للعربية تشتركان معاً في سامية واحدة. لا يمكنها ذلك نظراً إلى الامتياز الوحيد الذي تتمتع به السريانية عن اللغات السامية الأخرى، امتياز دور الوساطة في نقل المقولات اليونانية وثقافتها ومفاهيمها. فالسريانية إذاً في قلب العروبة ليس كتذكير بأصولهما السامية المشتركة فحسب، وإنما هي القناة التي تطلّبها الخيار الحر الذي اتخذته العروبة في عصرها الذهبي، عندما كانت العروبة تنهل من المنبع اليوناني.

ب. في ما يتعلق باللغات الحديثة، ألاحظ أنّ الموارنة لم يتعلموا الفرنسية أو على الأقل لم يكتبوا باللغة الفرنسية إلا منذ القرن الماضي. لكن حين اقتضى الأمر أن يتصل الموارنة بأوروبا، تزاحمت في نفوسهم ضرورة تعليم أوروبا لغات الشرق وضرورة أن يتعلموا هم أنفسهم لغات أوروبا. وهذه ضرورة أساسية في الحوار عندما نريد أن يحترم الحوار احتراماً كلياً قوانين الضيافة. وهي ضرورة ملحة، وخاصة عندما يرفض رجل الحوار أن يبقى متلقياً عادياً ومستهلكاً عموماً، وعندما لا يريد أن يؤدي دور المأجور، بل يطالب بدور الشريك. من بين المستعمرين من لم يهتم إطلاقاً بتعليم الشعوب المستعمَرة لغة سلطتهم، واكتفى باستخدام لغة مبسطة عندما يتوجه إليهم بالكلام، كمثال الملك شارل الخامس الذي كان يقول إنه يتحدث مع حصانه بالألمانية. لكنّ الموارنة الذين لم تكن لديهم أبداً عقدة نقص شعب تستعمره أوروبا صمّوا آذانهم عن هذا. فذكّروا العرب إذاً بما تعلمه العرب من أنفسهم عندما كانوا خلاقين مبدعين لا مستهلِكين. إنّ التمكن من لغة أجنبية كوسيلة مفيدة للتنفيس الفكري هو الأداة الضرورية للإبداع في الحداثة.

أستخدم كلمة حداثة للمرة الأولى في هذه المقدمة. وقد ترأس من الآن فصاعداً كل أغراضي ككاتب لـ«الخماسية الإنطاكية /أبعاد مارونية». وإني أحيل القارئ إلى نهاية الجزء الأخير، حيث لا أتوانى عن وصف كنيستنا ذاتها كـ«كنيسة الحداثة الثقافية».

لكن كنيستنا تبقى أولاً ودائماً «كنيسة الزهد والمدح الإلهي»، كما أشير إليه كذلك في موضعه، وبهذه الطريقة أنشأت «شعباً يعشق الحرية ولو أنه في حنين دائم إلى التعايش» (انظر الجزء الخامس، القسم الثالث، ذاكرة أمل). مهما كانت الإشكالية التي يجد القارئ نفسه ملتزماً بها إلى جانب كاتب هذه المجموعة، فليتفضل بالدخول إلى هذا التراث بفكر حر وصراحة موقف. فكل ما قيل له لغاية الآن من كلام قد يبدو عدائياً ليس إلا ليسلك الطريق ويبدد الغيوم. وإنّ فضّل القارئ الصورة على النص، فليفعل وليبتدئ بالصورة. لكنّ الصورة ستعيده إلى النص، وأنا على يقين بأنّه سيصبح، بتآلفه مع الروح المارونية في الصورة والنص، أكثر حباً للسلام وأكثر إنسانية. ومهما تجرع الموارنة من محن على طول تاريخهم، مع ما تتركه هذه المحن على شعب من شدة وحذر وإباء مهان، فإنّ الاعتراف بتراثهم يزوّد من يقترب منه ويتعاطاه بما أنعم بفيضٍ على كاتب هذه المجموعة: أي فرح يتجاوز كلّ حقدٍ أو مرارة وثقة على قدر جسامة المخاطر وقبل كلّ شيء حمد مستديم لله.

وفي ختام هذه المقدمة، سأقول مع من واقتداءً بمن أكرس حياتي لهذا الموقف.

كلمة إيحائيّة ختاميّة

كنت قد قررت لهذا الاستطراد الاستهلالي التمنع عن ذكر الأحياء الذين أنتمي إليهم وأن أكتفي بالوفيات. ظننت ذلك أسهل لي نظراً إلى العدد الكبير من الأحياء الذين أود شكرهم، وإلى خشية نسيان بعضهم. سنرى أنّي في نهاية الأمر قمت بواجبي مع أني لم أتحرر كلياً من الدين بالرغم من هول التذكرة التي يمكن

> أصبح الشرق، من الناحية الثقافية، مارونياً، إذ تبنى الموقف الفكري الذي اتخذه الموارنة بين الشرق وأوروبا

قراءتها في ما بعد. في المقابل، صرفت النظر هذه المرة عن فتح سجل المثوى الذي تلقي منه الأبدية أشعتها على كلّ صفحات هذه المجموعة.

حسبي أن أستذكر مثال جد أمي. ففي أولى ذكريات طفولتي، أراه يمتطي فرسه الشهباء، وهو الذي تجاوز حينها التسعين من عمره، ليذهب ويشارك في إزاحة الستار عن تمثال تكريماً ليوسف بك كرم. فلقد كان حقاً أحد رجال نضال البطولة في لبنان، وقد توفي في المنفى عام 1889. بمعنى آخر، هذا الباب الخاص بالأموات فريد من نوعه. وهو يضم كلّ أولئك، من وفيات جيلي إلى جيل أوائل تلاميذ مار مارون الذي كان قسيساً وراهباً في عصر يوحنا كريزوستوم، الذين يشكلون عائلة واحدة أحتفل بذكراها. لن يُفتح إذاً باب الوفيات هنا، لأنه يشمل هذه المجموعة برمتها.

لن يفوت القارئ، وسط هذا الحشد الكبير من الشهود المذكورين، رؤية بروز أولئك الذين ألهمتني مقاماتهم التواضع مثلما بعثت بي الورع المطبوع بالإعجاب. هكذا كرست ساعات طويلة لقراءة وترجمة البطريرك اسطفان الدويهي، إحدى أكبر بركات عمري. فما كنت أقوم به في مطلع شيخوختي ليس إلا العودة إلى قراءاتي، عندما كنت في ريعان شبابي، في كتب أبي وأجدادي الذين كانوا خوارنة رعية.

ففي هذه العودة العاطفية إلى حجر أمي من خلال إعداد «الخماسية الإنطاكية /أبعاد مارونية» وكتابتها، أتمنى بكل بساطة أن يحمل القارئ نظره إلى القمم الشامخة التي اعتلاها أنبل آل مارون بسبب ضراوة المصير التي كانت قسمتهم في العيش. لكن في هذه الحالة، حتى شواهد المارونية المغمورون الذين عنيتُ بالتعرف عليهم يجلسون في نفس العلو الحصب والجرد. وإني لا أعرضهم إذاً لفضول القارئ وإنما، استهانة بكل ذي وقع، لبحثه عن العفة والحكمة.

لهذا، فإن القارئ سيحمل نظره إلى كلّ منعطفات الطريق، إلى تلك التي نبتهل إليها كعرش الحكمة والتي باركها أبناء طائفتي من جيل إلى آخر لأنّ الله تفضل بتكريم تخضّع راهبته. ففي النضال القديم العهد الذي جعل من تاريخ الشعب الماروني سلسلة لا تنتهي من الإهانات والآلام، سيكتشف القارئ سر بهجتنا واعتزازنا ويفهم لما أمّ مصلوب هي أمنا وسيدتنا.

فتحت أقدامها، أضع، قبل أن تمنحني مراحل هذا المسار فرصاً أخرى للقيام به، إهداء هذه المجموعة الخاشع. وما أرجو في نهاية المطاف من هذا العمل إلا حباً أكبر لاسمها وتمجيداً له إلى حدّ النشوة، بالرغم من أتراح الوقت الحالي، عندما أتأمل المجد الذي ألقاه الله كشراع بهاء وروعة على جبل لبنان تكريماً لها.

تنبيه

كمواطن ومؤمن أنفر من كلّ تملك فيه تحزّب. فتكريس مجموعة بحالها للتراث الماروني، حتى ولو كان في إطار المسيحية الإنطاكية، هو عملية يجب ألا تؤدي إلى تضليل.

يظهر المارونة حماسة وغيرة لما يحفل به أبناء طائفتهم أو بلدهم حيثما كانوا. فإن كان ثمة شيء اسمه ماروني، فهو أن يتقبله الغير ويتعرف عليه ويثمّنه كما يراه. هذه «الخماسية الإنطاكية /أبعاد مارونية»، التي أحجمت عن إدراج مواضيع جمّة وعدد لا بأس به من البلدان غير المارونية، لا تنوي على الإطلاق القيام بالتملك أو حتى بالتفرقة أو التمييز.

يعود فضل ترجمتَي الإلياذة التي عرفهما الشرق السامي إلى شخصيات مارونية. فالترجمة الأولى صدرت بالسريانية في القرن الثامن نسبها بار إبرايوس إلى تيوفيل الأورفي وهو ماروني، والأخرى ترجمة باللغة العربية ظهرت في القرن التاسع عشر قام بها سليمان البستاني الذي اضطر الى أن يتعلم اليونانية لينقل لنا هوميروس شعراً.

أعطي هذا المثل لأقول إنّ أخيار الموارنة ليسوا للموارنة، أو إنّ خير ما يمتلكون هو خير يعمّ على الجميع. إنّ خير هذه المجموعة في مراجعه التوراتية. فلو نُسخت هذه المقاطع لتضاعف حجم المجموعة.

فلو كان إذاً لأجزاء هذه المجموعة فائدة ما، فهي على قدر ما تبرز أنّ الموارنة يتمتعون في حضن الكنيسة العالمية بموهبة وهبت للمؤمنين كافة، وأنّ أخيار الموارنة في عالمهم الثقافي هم من يعترف بكفاءتهم زملاؤهم من الأديان الأخرى. فمن أشهرهم عالمياً جبران خليل جبران صاحب كتاب النبي، وقلّة قليلة من سكان الأرض تعرف أنّه ماروني. لماذا، والحالة هذه، خماسية تكرس للتراث الماروني، ولماذا التمييز بين الأدباء الموارنة وغيرهم، والتاريخ الماروني عن التاريخ العام للبطريركية الإنطاكية وسائر المشرق؟ فإن لم يتضح السبب في المقدمة التي سبقت على نحو كاف، أمل أن تبرره كل الأجزاء.

---

(1) أو الصحوة الكاثوليكيّة بعد الثورات البروتستانتيّة ضد كنيسة روما

* خماسيّة مارونيّة، المجلّد الأول، الجزء الأول، ص. 21 إلى ص. 31

(ترجمة الدكتورة سلام دياب، أستاذة في اللغة العربية والمسؤولة العلميّة عن الصفحة العربيّة لموقع الإنترنت التابع للمدرسة العليا لتخريج الأساتذة (Ecole normale supérieure de Lyon) في مدينة ليون: http://cle.ens-lsh.fr)